حولية الكوفة

دورية سنوية، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به ـ العدد الخامس ـ شهر رمضان ـ ١٤٣٦ هـ / تموز ـ ٢٠١٥ م

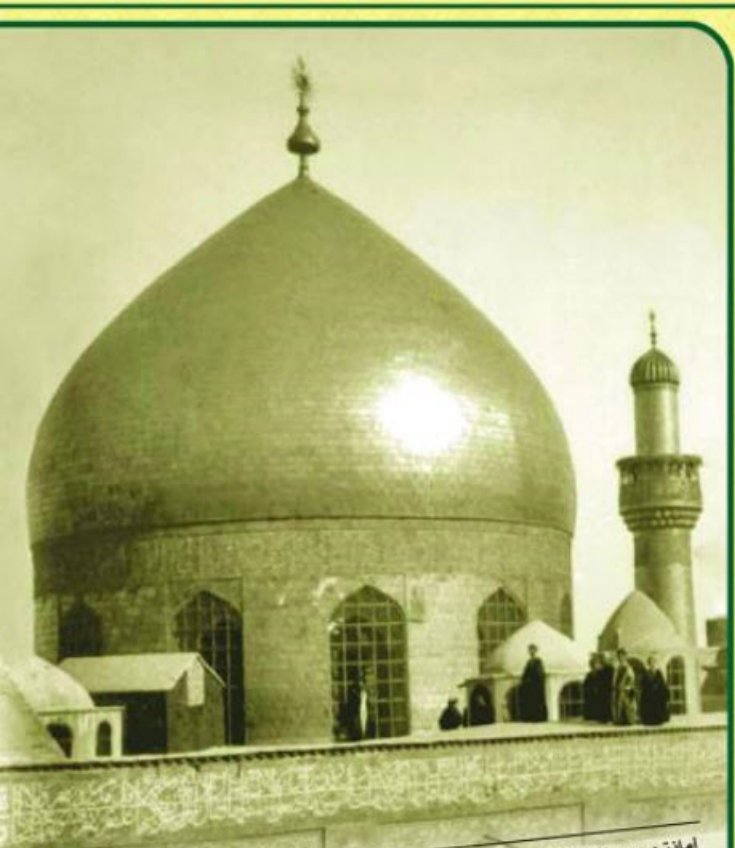

أمانة مسجد المعظم تحتفل بمناسبة مرور ١٤٠٠ عام على اختيار الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)
الكوفة عاصمة لحكومته المباركة عام ٣٦ للهجرة

٥

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الكوفة ونهر الفرات

الأستاذ المهندس تحسين عمارة

يرتبط نهر الفرات بمدينة الكوفة ارتباطا وثيقا، بل هو شريان الحياة النابض لهذه المدينة.. وقد مرَّ الفرات بمراحل عدة من خلال تغير مجراه؛ مما اثر على هذه المدينة وعلى وجودها كمدينة تاريخية عريقة.. سوف أستعرض في الصفحات التالية مراحل تغير مجرى الفرات منذ تاريخ إنشاء هذه المدينة العريقة إلى يومنا هذا...

نهر الفرات

ارتبط نهر الفرات بتاريخ العراقيين منذ القدم فقد ورد اسمه في النصوص السومرية وباللغة المسمارية بلفظ بورانن (Buranun) أو بورونا (Burununa) ويرادف ذلك في اللغة الأكدية بوراتي (Purati) أو بوراتوم (Puratum) ومنها الصيغة العربية (فرات) والتي تعني الماء العذب[1].

يبلغ طول نهر الفرات ٢٣٥٠ كم وتستفيد منه ثلاث دول هي تركيا وسورية والعراق فيبلغ طول ما يجري منه في الأراضي التركية ٥٤٥ كم وما يجري في الأراضي السورية ٧٠٦ كم. أما طول ما يجري في الأراضي العراقية فهو ١٠٩٩ كم..[2]

يذكر ويلكوكس إن دجلة والفرات يحملان خمسة أضعاف ما يحمله النيل من غرين ويرتفعان بدون إنذار سابق وسلوكهما على الدوام مفاجيء[3].

وهذا مما يجعل الأنهار في العراق تغيّر مجراها باستمرار؛ فهي تحتاج إلى عناية مستمرة من حيث تطهير مجراها وكريه[4]؛ لذلك نرى عندما تهمل قنوات الري نتيجة الأوضاع السياسية التي مرت عبر التاريخ يحدث تبدل هائل في مجرى الأنهار. وعندما ندرس خريطة الأنهار في العراق عبر التاريخ نجدها في تبدل مستمر. فهي هنا تارة وتارة هناك[5].

عند ظهور الإسلام في مكة لم يكن نهر الفرات يجري في مجراه قرب الكوفة بل كان يسير في مجرى بابل، واستمر بذلك المجرى مدة تزيد عن ألفي عام وهي أطول مدة بقي الفرات يسير فيها طيلة مراحل جريانه؛ وبذلك اتخذت المملكة البابلية القديمة مدينة بابل عاصمة لها[6].

عندما كان الفرات يجري في فرع بابل كان هناك فرع يتشعب من ضفته اليمنى جنوب مدينة المسيب الحالية فيسير بأتجاه شط الهندية الحالي ويستعمل كمصرف للمياه وقت الفيضان.. وقد ورد اسمه في المدونات البابلية (نار - بالوكات) ثم عرف باسم (بلاكوباس) في عهد الأسكندر[7].

يتضح أنّ نهر الفرات كان يميل باتجاه فرع الهندية الحالي، وأهتم الأسكندر بذلك؛ فأحكم السداد وتم ضبط المياه حتى يسير النهر باتجاه مجرى بابل، وعند وفاة الأسكندر عام ٣٢٣ قبل الميلاد خيمت على بابل سحابة من الأضطرابات السياسية وفيها أهملت أنظمة الري[8].. وقد روى سترابون أنّ الأسكندر كان يستقل ظهر سفينة يقودها بنفسه فيفتش صدور الجداول المتفرعة من الأنهر الواحد بعد الآخر، ثم يستعين برجال جيشه في سد البعض منها أو فتحه حسبما تقتضيه الحاجة[9].

(١) مجموعة مؤلفين - العراق في التاريخ - بغداد ١٩٨٣ ص - ٣٨.
(٢) عبد الرزاق الحسني - العراق قديما وحديثا - ط ٧ بغداد ١٩٨٢ ص - ٦٤
(٣) أحمد سوسة - فيضانات بغداد في التاريخ - ط ٢ بغداد ٢٠١٣ القسم الأول ص - ١٤٧.
(٤) علي الوردي - دراسة في طبيعة المجتمع العراقي - بغداد ١٩٦٥ ص - ٢٩.
(٥) كوردن هستد - الأسس الطبيعية لجغرافية العراق - ترجمة جاسم الخلف.. ص - ٦٢.
(٦) أحمد سوسة - تاريخ حضارة وادي الرافدين - ج /٢ ص - ٦٣.
(٧) أحمد سوسة - المصدر السابق ص - ٦٤.
(٨) أحمد سوسة - فيضانات بغداد في التاريخ - المصدر السابق ص - ٢٠٤.
(٩) المصدر السابق ص - ٢٠٣.

وقد كتب سير ويليم ويلكوكس باني سدة الهندية [كان أول مشروع عمراني قام به الأسكندر في بابل هو انتخابه أرضا قوية لحفر صدر جديد لجدول بالاكوباس الذي سمي فيما بعد فرع الهندية، وهو اليوم المجرى الرئيسي للفرات، فقد كان الصدر حتى ذلك الحين محفورا في ارض رملية. ولما كان من الضروري فتح فرع أثناء الفيضانات العالية لتسريح فضلات مياه الفرات ثم سده فورا بعد الفيضان لجعل المجرى الرئيسي مملوءاً بالماء[1].. طبعا هنا المجرى الرئيسي هو مجرى بابل...

بعد ضبط صدر بالاكوباس مباشرة اتجه الأسكندر نحو أسفل النهر فأنشأ سداداً ضخمة بين فرع بابل ومستنقعات (بحر) النجف شمال الشنافية؛ وذلك تمهيدا لأحياء هذه المساحة الواسعة

ثم ذكر ويلكوكس: إنّ الرخاء استمر أربعة قرون في عهد الساسانيين ثم أخذ الضعف يسري في شريان المملكة الساسانية في عهدها الأخير فأهملت مشاريع الري والسداد وتخربت أكثر الجداول بتأثير الفيضانات سنة بعد أخرى وأدى ذلك في النهاية إلى تحول مراكز المدنية من مواقعها الأصلية إلى مواقع جديدة[2].

هكذا كان مجرى نهر الفرات عند ظهور الإسلام في مكة المكرمة...

السنة السادسة من الهجرة

لنترك نهر الفرات ومجراه ونذهب إلى الطريق بين المدينة ومكة حيث الحديبية وذلك في السنة السادسة من الهجرة..وقد ذكر المسعودي [إنّ في تلك السنة كان استسقاؤه (ﷺ) لما لحق الناس من الضرّ والجدب][3] قال علي (عليه السلام): لقد كان كذلك ومحمد (ﷺ) لما نزل الحديبية وحاصره أهل مكة وذلك إنّ أصحابه شكوا إليه الظمأ وأصابهم ذلك حتى التقت خواصر الخيل فذكروا له (ﷺ) فدعا بركوة[4] يمانية ثم نصب يده المباركة فيها فتفجرت من بين أصابعه عيون الماء فصدرنا وصدرت الخيل رواء، وملأنا كل مزادة وسقاء[5].

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص - ٢٠٤.

(٣) المسعودي - مروج الذهب ومعادن الجوهر - ط٣ القاهرة ١٩٥٨ ج/٢ ص - ٢٩٦.

(٤) الركوة: وعاء الماء وجمعها ركاء وركوات (الجوهري - الصحاح - ط٤ بيروت ١٩٨٧ ج /٦ ص - ٢٣٦١.

(٥) الشيخ الطبرسي (ت: ٥٤٨) - الأحتجاج - النجف ١٩٦٦ ج /١ ص - ٣٢٥.

عن عبد الله بن مسعود قال: أتى النبي (ﷺ) بإناء فوضع يده فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فقال النبي: حيّ على الطهور المبارك والبركة من السماء، فلم يزل ينبع الماء من بين أصابعه حتى توضأنا كلنا. فقيل لأنس كم كنتم قال: ثلاثمائة أو زهاء ذلك[6].

كانت معجزة الرسول (ﷺ) ودعاؤه في ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة ويقابلها في التاريخ الميلادي سنة ٦٢٨ وعند حساب الشهر الذي يقابل ذي القعدة من ذلك العام ظهر شهر نيسان من السنة الميلادية وهو موعد الفيضانات في العراق كما هو معروف حيث غيَّر الفرات مجراه باتجاه الكوفة، وهو الفيضان الذي غيَّر مجرى التاريخ في العراق ولازالت آثاره باقية إلى يومنا هذا..

فيضان سنة (٦٢٨ - ٦٢٩) ميلادية

ذكر أبو الفرج قدامة بن جعفر (٢٦٦ هـ / ٨٨٠ م) في كتابه [الخراج وصنعة الكتابة] هذا الفيضان فقال: إنّه حدث في السنة السادسة للهجرة وخرّب السدود والسكور[7] ومنشآت الري فبذل أبرويز[8] جهودا كبيرة في سبيل إعادة السدود والمنشآت إلا أنّ حرب العرب حال دون تحقيق أمنيته؛ الأمر الذي أدى إلى اتساع البطائح اتساعا عظيما[9].. وقد أيد المسعودي (٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م) ذلك في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر وكذلك ابن رسته (٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م) حيث وصف منطقة البطائح[10].

وذكر البلاذري [وحدثني أبو مسعود الكوفي عن أشياخه قالوا: حدثت البطائح بعد أن هاجر النبي (ص) وملك الفرس ابروين. وذلك انه انبثقت بثوق عظام عجز كسرى عن سدها وفاضت الأنهار حتى حدثت البطائح][11].

وكان من نتائج هذا الفيضان الهائل أنّ تحوّل مجرى الفرات من مجرى بابل إلى جهة شط الهندية الحالي وبقي على هذه الحالة منذ القرن السابع الميلادي إلى القرن الثالث عشر الميلادي عندما عاد إلى مجراه السابق مجرى بابل..

(٦) محمد بن سليمان الكوفي (ت: ح ٣٠٠) - مناقب الأمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ط١ قم ١٤١٢ ج /١ ص - ٧٨.

(٧) السكر: سد النهر ومنه سكره يسكره إذا سد فاه، وكل بثق سد فقد سكر.. الزبيدي - تاج العروس - بيروت ١٩٩٤ ج / ٦ ص - ٥٣٣.

(٨) كسرى ابرويز بن هرمز بن كسرى أنو شروان كان أشد ملوك الفرس بطشا، في سنة عشرين من ملكه بعث الله محمدا (ﷺ).

(٩) أحمد سوسة - فيضانات بغداد في التاريخ - ص٢٠٥ - ٢٠٦.

(١٠) المصدر السابق ص ٢٠٦.

(١١) البلاذري (ت: ٢٧٩ هـ) - فتوح البلدان - القاهرة ١٩٥٧ ج / ٢ ص - ٣٥٩.

ويعتقد سير ويليم ويلكوكس إنّ انتصار العرب على الفرس في العراق يعزى إلى حد كبير إلى قيام الحملة عقيب وقوع هذا الفيضان الهائل لنهر دجلة[1] الذي هو أيضا فاض بنفس العام ولا أعلم لماذا خصّ ويلكوكس تأثير فيضان دجلة وترك فيضان الفرات مع إن أغلب المعارك الفاصلة وقعت في حوض نهر الفرات.

اختيار موقع الكوفة

بعد معركة القادسية الشهيرة في بداية عام ١٤ هجرية (آذار ٦٣٥ م) والأنتصارات المتتالية التي حققها المسلمون حتى تسنى لهم فتح المدائن في صفر سنة ١٦ هجرية (آذار ٦٣٧ م) واستولوا على ذلك كلّه مما بقي في بيوت كسرى[2]. بقي المسلمون في المدائن.

في سلسلة من الرواة عن الشعبي قال: لما نزل سعد بالمدائن وقسم المنازل بعث إلى العيالات، فأنزلهم الدور وفيها المرافق، فأقاموا بالمدائن حتى فرغوا من جلولاء وتكريت والموصل، ثم تحولوا إلى الكوفة....[3]

في السنة السابعة عشرة جاء في تاريخ الطبري (كتب حذيفة إلى عمر بن الخطاب: إنّ العرب قد أترفت[4] بطونها وخفت أعضادها وتغيّرت ألوانها وحذيفة يومئذ مع سعد.... كتب عمر إلى سعد: أنبئني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم؟ فكتب إليه: إنّ العرب خدَّدهم[5] وغيّر ألوانهم وخومة المدائن ودجلة، فكتب إليه: إنّ العرب لايوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فأبعث سلمان رائدا وحذيفة - وكانا رائدي الجيش - فليرتادا منزلا برّيا بحريا، ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر، ولم يكن من أمر الجيش شيء إلا وقد أسنده إلى رجل، فبعث سعد حذيفة وسلمان، فخرج سلمان حتى يأتي الأنبار، فسار غربي الفرات لايرضى شيئا حتى أتى الكوفة.

وخرج حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة، والكوفة على حصباء - وكل رملة حمراء يقال لها سهلة، وكل حصباء ورمل هكذا مختلطين فهو كوفة - فأتيا عليها، وفيها ديرات ثلاثة: دير حرقة، ودير أم عمرو، ودير سلسلة، وخصاص خلال ذلك، فأعجبتهما البقعة، فنزلا فصلّيا، وقال كل واحد منهما: اللهم رب السماء وما أظلت، ورب الأرض وما أقلت، والريح وما ذرَت، والنجوم وما هوت، والبحار وما جرت، والشياطين وما أضلت، والخصاص وما أجنّت، بارك لنا في هذه الكوفة، واجعله منزل ثبات، وكتب إلى سعد بالخبر][6].

مناقشة ما ورد في تاريخ الطبري

تعمدت كتابة ما ورد في تاريخ الطبري رغم أنّ الطبري ذكر عدة نصوص لكنها لا تختلف من حيث الجوهر بما ورد بالنص السابق واقصد به نص اختيار موقع الكوفة.

١ - لماذا سار حذيفة في شرق الفرات..؟ وهو بذلك خالف أمر خليفة المسلمين وسار شرق الفرات لأختيار موضع مدينة المسلمين وهي بموقعها هذا شرق الفرات يجعل الوصول إلى المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية آنذاك لابد أن يمر من خلال جسر وهي مخالفة صريحة لرسالة وأمر الخليفة عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص.

٢ - إن اسم الكوفة عندما أختارها سلمان الفارسي يدل أنّه جاء من الرمل المخلوط من الحصى.. أي إن سلمان شاهد الأرض ومن صفة الأرض أختار الأسم فقد جاء في تاج العروس: إنّ الكوفة بالضم تعني الرملة الحمراء المجتمعة وقيل المستديرة وكل رملة تخالطها حصباء[7].. وهذا الوصف ينطبق على الأرض في منطقة ظهر الكوفة...

مواقع ماكثة في الكوفة منذ القرن الأول الهجري

هناك ثلاثة مواقع يمكن وضعها كمثابة دالّة على تحديد موقع الكوفة وخارطتها وهي:

١ - خندق سابور: أو كري سعدة وهو من بقايا موقع الكوفة قبل الإسلام وما أجري عليه من تطوير في العهود الإسلامية.

٢ - مسجد الكوفة: وقصر الأمارة وهو أول بناء في الكوفة لازال موقعه ماثلا إلى يومنا هذا[8].

٣ - مسجد السهلة: وهو أحد أكبر المساجد في الكوفة التي شيدت في القرن الأول الهجري ومازال أثرها وذكرها خالدا إلى يومنا هذا[9].

٤ - مسجد النبي يونس أو مسجد الحمراء وهو أيضا من المشاهد القديمة في الكوفة وذكره ابن المستوفي قال: إنّه بالطريق الشرقي من الكوفة.[10]

---

(١) أحمد سوسة - المصدر السابق - ص ٢٠٧.

(٢) الطبري (ت: ٣١٠ هـ) - تاريخ الرسل والملوك - القاهرة ١٩٦٣ ج /٤ ص - ١٠.

(٣) المصدر السابق ص - ٢١.

(٤) أترفت = تنعمت... تاج العروس ١٢ / ٩٩.

(٥) الطبري - المصدر السابق - ص - ٤١.

(٦) المصدر السابق.

(٧) الزبيدي - تاج العروس - بيروت ١٩٩٤.. ج /١٢ ص - ٤٦٩.

(٨) الطبري - المصدر السابق - ص - ٤٤، ٤٥.

(٩) محمد بن جعفر المشهدي (ت: ق ٦) - فضل الكوفة ومساجدها - بيروت ص ٣٩ الهامش.

(١٠) المصدر السابق - ص - ٦٨.

مجرى نهر الفرات عند تمصير الكوفة

راجعت العديد من المصادر والخرائط حول موضع الكوفة من نهر الفرات، وارأها تكاد تكون مجمعة على أنّ موقع نهر الفرات الحالي هو موقع نهر الفرات عند اختيار سلمان وحذيفة الكوفة مدينة للمسلمين..وهذا ما يخالف الحالة التاريخية، فقد مرّ نهر الفرات بعدة أطوار منها ثلاثة أطوار في العهود الإسلامية سنستعرضها لاحقا..

في اعتقادي أنّ موقع نهر الفرات عند تمصير الكوفة هو موقع فرع نهر العباسية اليوم وذلك للأسباب التالية:

١ - إنّ اختيار الكوفة جاء بعدما سكن المسلمون في المدائن وقد تأثروا وتغيرت ألوانهم واختيار الكوفة بتماس النهر يجعل ذات الأجواء التي في المدائن.

٢ - من اسم الكوفة ومعناها العربي هو دليل على ابتعادها عن مجرى النهر وخليط الحصى والرمل يصنف من الناحية الجيولوجية بتكوين الدبدبة[١] وهي تختلف عن الترسبات النهرية التي تتكون من ذرات الرمل الصغيرة السوداء اللون.

٣ - الأبتعاد عن قرب مجرى النهر بوجود البساتين والأراضي الزراعية التي تعود لسكانها.

٤ - هكذا دأب المسلمون عند اختيارهم المدن فقد بنيت البصرة بعيدا عن شط العرب.. ففي محرم من سنة ١٢ هـ / نيسان ٦٣٣ م سار خالد نحو الأبلة وهي ميناء على شط العرب وإليها كانت ترسو السفن الوافدة من الهند والسند ومكان الأبلة يبعد عن موضع البصرة (ولم تكن البصرة قد اختطت بعد) أربعة فراسخ أي ٢٢ كم.[٢].

٥ - لما كان الفرات بعيدا عن الكوفة فقد فتحت أقنية ثم حفر بئر ونقرأ في تاريخ الكوفة للبراقي [في خلال القرن الأول لم تكن في الكوفة بئر للأستسقاء، وإنما كانت بعض أقنية والناس يعتمدون على السقائين الذين يحملون الماء من الشريعة، بعد ذلك عرفت بئر علي واستسقى الناس منها][٣].

٦ - قام الأمام علي (عليه السلام) بحفر بئر بالكوفة وماؤها أعذب ماء لبئر في الكوفة وهو دليل وجود آبار كثيرة.[٤]

٦ - وصفت الكوفة بأنها في البرية.. ففي معجم البلدان ذكر [قال الكلبي: قدم الحجاج بن يوسف على عبد الملك بن مروان ومعه أشراف العراقيين، فلما دخلوا تذاكروا أمر الكوفة والبصرة فقال محمد بن عمير العطاري: الكوفة سفلت عن الشام ووبائها وارتفعت عن البصرة وحرها فهي برية مرئية مريعة][٥].

٧ - عندما شق آصف الدولة الهندي ترعة الهندية في عام ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م، وغايته إيصال الماء إلى النجف[٦] لكنّ قسماً منه ذهب إلى فرع العباسية دون حفر، وهو دليل وجود آثار نهر قديم.

٨ - وزع سعد القبائل على ما أحاط بالجامع بجهاته الأربعة على شكل مناهج وهي الطرقات[٧].

٩ - لو كانت الدور على ضفة النهر كما هي الحال اليوم لجعل سعد بن أبي وقاص قصر الأمارة على النهر وهو قصر فخم سماه الخليفة قصر الخبال.

١٠ - قمت بقياس المسافة بين مسجدي الكوفة والسهلة وهما الموقعان الوحيدان اللذان بقيا منذ القرن الأول الهجري كما مر، ظهرت المسافة بينهما ٢٢٥٠ مترا، وطبعا مسجد الكوفة يتوسط الكوفة وإذا اعتبرنا أنّ مسجد السهلة هو آخر مدينة الكوفة فهذا يعني أنّ موقع النهر الحالي والذي يبعد ١٢٥٠ متراً يقع ضمن حدود مدينة الكوفة وبين أزقتها وليس في طرفها علماً أنّ المسافة بين مسجد الكوفة ونهر العباسية هي ٧٠٠٠ متر وهي مسافة معقولة إذا علمنا ان الدور قد تمتد لمسافة ٣ كم عن مسجد الكوفة وكانت تلك هي منازل ثقيف.

١١ - تشير المصادر التاريخية إلى منطقة في الكوفة تسمى السبخة، والسبخة: محركة ومسكنة: أرض ذات نز وملح وجمعها سباخ[٨] وهي بطبيعتها لابد أن تكون في أرض منخفضة وقد حدد موقعها ماسنيون بين الكوفة ونهر الفرات[٩] أي ان هناك مساحة فاصلة بين الكوفة ونهر الفرات وقد حدد موقعها أيضا الدكتور عبد الرحمن بدوي فذكر [هي سهل صحراوي فسيح أمام الكوفة من ناحية الفرات][١٠].

١٢ - وفي تقديري إنّ السبخة هي من المناطق التي غمرتها المياه بعدد الفيضان الذي حصل في السنة السادسة للهجرة، ثم انحسر عنها الماء بعد الفيضان وربما يغمرها في كل موسم فيضان، ويبدو أنّ السبخة منطقة واسعة إذ جرت

(١) د. موسى جعفر العطية - أرض النجف - ط ١ النجف ٢٠٠٦ ص - ٣٦.
(٢) أحمد عادل كمال - الطريق إلى المدائن - ط ٦ بيروت ١٩٨٦ ص -٢١٢.
(٣) البراقي - تاريخ الكوفة - ط ١ ايران ١٤٢٤ هـ ص - ١٦٤.
(٤) المصدر السابق ص - ١٤٧.
(٥) الحموي - معجم البلدان - بيروت ١٩٧٩ ج ٤/ ص - ٤٩٢.
(٦) جعفر باقر محبوبة - ماضي النجف وحاضرها - ط ٢ ٢٠٠٩ ج ١/ ص - ١٩٥.
(٧) الطبري - المصدر السابق - ص - ٤٥.
(٨) الزبيدي - المصدر السابق - ج ٤/ ص - ٢٧٦.
(٩) ل. ماسنيون - خطط الكوفة وشرح خريطتها - ترجمة: ت. المصبعي ط ١ صيدا ١٩٤٦ ص - ١ الخارطة.
(١٠) د. عبد الرحمن بدوي - الخوارج والشيعة - ط ٥ القاهرة ١٩٩٨ ص - ١٢٨ الهامش.

فيها معركة اشترك فيها زيد بن علي بن الحسين (عليه السلام) وما عرف بيوم السبخة،وهو دليل بعد نهر الفرات عن الكوفة[1].

١٣ - إنّ وجود نهر الحيرة دليل على بعد الفرات إذ لولا ذاك لما جلب نهر من الفرات إلى الحيرة وسمي بنهر الحيرة وهو واحد من مجوعة أنهار تخرج من الفرات ونقرأ [ثم ركب المختار راحلته نحو الكوفة فوصل نهر الحيرة يوم الجمعة فأغتسل ولبس ثيابه][2].

١٤ - تشير الخرائط الكنتورية[3] أنّ المنطقة التي يجري فيها فرع العباسية (الشامية) هي الأكثر انخفاضا من الناحية الطوبغرافية وهو دليل على أن جريان نهر الفرات بدون تدخل الأنسان يسير نحو الأراضي المنخفضة أي مجرى العباسية اليوم[4].

١٥ - وذكر عبد الحسين الكليدار أنّ آثار نهر الفرات القديم مرئية ومشهودة فقال يصف مجرى الفرات القديم [حتى اذا بلغا (ويقصد فرعي نهر الفرات نينوى والعلقمي) خان الحماد منتصف الطريق بين كربلاء والغري، اتجها إلى الشرق تماما، وقطعا شط الهندية بجنوب برس وأثرهما هناك مرئي ومشهود، حتى يسقيان شرقي الكوفة][5].

١٦ - لبعد موقع نهر الفرات نسبيا عن الكوفة فقد خرجت انهار من الفرات إلى الكوفة وقراها فقد جاء في اليتيمة الغروية والتحفة النجفية [قال المؤلف السيد حسين البراقي عفا الله عنه: إنّ في الفرات أخبار كثيرة وكذا في قرى الكوفة وقد ذكرت آنفا في الأنهار التي كانت تجري من الفرات إلى الكوفة وكذا قراها وكانت كثيرة][6].

١٧ - كان في الكوفة نهر يسمى التاجية وهو أقدم من نهر التاجية المتأخر الذي سنتطرق إليه لاحقا كان ذلك النهر يأخذ ماءه من الفرات القديم وصولا إلى شريعة الكوفة[7].

(١) أبو الفرج الأصفهاني - مقاتل الطالبيين - ط ٢ النجف ١٩٦٥ ص - ٢٤٨.

(٢) ابن الأثير (ت: ٦٣٠ هـ) - الكامل في التاريخ - بيروت ١٩٦٦ ج /٤ ص - ١٧١.

(٣) الخريطة الكنتورية: يتم فيها ايضاح خطوط كنتورية تتصل بنقاط بارتفاع مشترك وتتوإلى الخطوط حسب الأرتفاعات مع جعل ارتفاع معين بين خط وآخر.

(٤) خارطة بقياس ١ / ٥٠٠٠٠ طبعتها مديرية المساحة العامة بغداد - ١٩٧٦.

(٥) السيد عبد الحسين آل طعمة الكليدار - بغية النبلاء في تاريخ كربلاء - بغداد ص - ٨٣

(٦) السيد حسين البراقي - اليتيمة الغروية والتحفة النجفية - ط ١ ايران ١٤٢٨ ص -٩٣.

(٧) جعفر باقر محبوبة - ماضي النجف وحاضرها - ط ٢ بيروت ٢٠٠٩ ج /١ ص - ١٨٩

مجرى نهر الفرات في نهاية الدولة العباسية

بعد أنْ تحوّل مجرى الفرات باتجاه الكوفة فقد أصبح مجرى بابل فرعا صغيرا يسمى نهر سورا ويمكن مشاهدة صدر هذا النهر شمال مدينة المسيب في الطريق إلى الأسكندرية حيث تشاهد ضفافاً مرتفعة لنهر قديم[8].

وفي أواخر الدولة العباسية أخذ مجرى نهر سورا (مجرى بابل) يتوسع تدريجيا على حساب مجرى نهر الكوفة، حيث أهملت أعمال الري حتى دخل المغول وبذلك زاد الأضطراب في البلاد حيث تحول مجرى الفرات من المجرى الغربي الذي يسير نحو الكوفة إلى مجرى بابل القديم..

وعند زيارة الرحالة ابن جبير للكوفة عام ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م فذكر [هي مدينة كبيرة عتيقة البناء، قد استولى الخراب على أكثرها، فالغامر أكثر من العامر؛ ومن اسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها، فهي لا تزال تضر بها][9] و يضيف ابن جبير [وبناء هذه المدينة بالآجر، و لا سور لها. والجامع العتيق آخرها مما يلي شرقي البلد، و لا عمارة تتصل به من جهة الشرق. وهو جامع كبير][10]. ثم يصف الجامع ويقول في آخر وصفه له [فما أرى في الأرض مسجدا أطول أعمدة منه و لا أعلى سقفا][11] وذكر قبر مسلم بن عقيل[12]. ولكنه لم يذكر نهر الفرات ويبدو أنّه تحول نهائيا إلى مجرى بابل.

نهر التاجية

في عام ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م ابتدأ العمل في حفر نهر التاجية وكان بأمر الصاحب عطاء الملك بن محمد الجويني صاحب الديوان في الدولة الأيلخانية. والأسم جاء من السيد تاج الدين الحسيني الذي كان من أفاضل ذلك العصر من الشيعة[13] وقد أنفق عليه ما يزيد على مئة ألف دينار احمر ذهبي. وقد تم حفر النهر من الفرات القديم قرب المسيب حتى الكوفة بطول عدة فراسخ، وكانت الكوفة آنذاك حفائر و تلولا وآكاما وأنقاض جدران، لا يطرقها زائر ولا ينبت بها زرع..[14].. وهو غير نهر التاجية الذي سبق وأنْ ذكرناه.. وكان يراد به إيصال الماء إلى النجف[15].

(٨) أحمد سوسة - تاريخ حضارة وادي الرافدين - ج /٢ ص - ٦٣.

(٩) رحلة ابن جبير ط٢ بيروت ١٩٨٦ ص ١٦٨.

(١٠) المصدر السابق.

(١١) المصدر السابق.

(١٢) المصدر السابق ص ١٦٩.

(١٣) محمد حرز الدين - تاريخ النجف الأشرف - ط ١ قم ١٤٢٧ ج /٢ ص - ١٩٨

(١٤) جعفر باقر محبوبة - المصدر السابق ص - ١٨٨.

(١٥) السيد حسين البراقي - تاريخ الكوفة - ط ١ ايران ١٤٢٤ هـ ص - ٢١٩.

وهذا النهر هو الذي أوهم بعض المؤرخين ظنا منهم أنّه نهر الفرات الرئيسي وقام الآخرون برسم الخرائط الخاصة بمجرى الفرات عند تمصير الكوفة.. وقد شاهده ابن بطوطة عند زيارته إلى الكوفة فقال: [وأما قصر الأمارة بالكوفة الذي بناه سعد بن ابي وقاص فلم يبق منه إلاّ أساسه، والفرات على مسافة نصف فرسخ في الجانب الشرقي منها][1].

بقي هذا النهر عامرا إلى نهاية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي).. ففي سنة خمس وتسعين وسبعمائة (١٣٩٣ميلادية) جاء الملك تيمورلنك إلى الكوفة غازيا وسد نهر التاجية؛ فعندها تفرّق أهل الكوفة في جميع النواحي وخربت الكوفة[2].

نهر الهندية:

كان سكان النجف من الأغنياء يجلبون الماء من الكفل، والفقراء يشربون ماء الآبار المالح،[3] وقيل أنّ امرأة من الشيعة هندية قامت بشق جدول صغير من الفرات عند بلدة المسيب الى الكوفة فنسب إليها وقيل نهر الهندية[4] وقيل: إنّ الذي شقه أميرة هندية وذلك لما رأت أثناء زيارتها إلى مدينة النجف[5] لكن المشهور أنّ الذي بعث الأموال هو آصف الدولة الهندي وزير محمد شاه وكان من رجال الهند المشهورين[6]. وقد شاهد ابو طالب خان عمليات الحفر وهو في طريقه من كربلاء إلى النجف فذكر [وعندما أتممت واجبات زيارتي بكربلاء سافرت إلى النجف على طريق الحلة، فوصلت إليها في اليوم بعينه، وفي هذه المدينة التي على مسافة ستة عشر فرسخا رأيت في طريقي قناتين الأولى تسمى النهر الحسيني (يقصد نهر الحسينية) وكان السلطان مراد أمر بحفرها لإجراء الماء الفراتي إلى كربلاء، والثانية تسمى نهر الهندي (يقصد نهر الهندية) أو الآصفي لأن النواب آصف الدولة أمر بحفرها بنفقاته وهي أعرض من النهر الحسيني، وكان يراد بها إرواء النجف موضع مشهد علي، وهذه القناة بلغت الآن النفقات عليها عشرة الكاك من الربيات أي ١٢٥ ألف لويس من الذهب، ولكن باشا بغداد والناظر في شؤون القناة جعلاها تمر بالكوفة وعدة مدن أخرى، بحيث لاتزال بعيدة عن الوصول إلى موضعها المقصود، بدلا من أن يحفراها في خط مستقيم، ومع هذا فالأعمال متواصلة دائما][7]. لقد تم العمل في حفر جدول الهندية سنة ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ بعد أن استغرق العمل فيه ثلاث سنوات.

كان نهر الهندية في بدايته جدولا صغيراً لغرض إيصال مياه الشرب إلى مدينة النجف ثم أخذ يتوسع تدريجيا وخرجت منه فروع كثيرة، وخاصة في منطقتي الهندية وهور الدخن (ناحية العباسية اليوم) وغمرت مياهه جميع المنخفضات الواقعة على جهتيه وصيرتها اهوارا[8].

وورد في رحلة المنشيء البغدادي التي كتبها سنة ١٢٣٧ هـ / ١٨٢١ م وهو يصف المنطقة بين الكفل والنجف [من الكفل إلى النجف أربعة فراسخ وفي الطريق يعبر من نهر الهندية لمرات وهذا النهر يأتي من الفرات ويذهب إلى النجف وفي موطنين وعليه قناطر][9].

وتكونت مستنقعات واسعة تمتد من أعلى بلدة الكوفة الحالية من المكان المعروف باسم علوة الفحل إلى مكان قريب من بلدة أبو صخير الواقعة على مسافة نحو عشرين كيلو مترا من جنوب الكوفة[10].

كانت أكثر مياه نهر الفرات تذهب إلى نهر دجلة؛ فقد شحت المياه في شطي الحلة والهندية نتيجة ذلك، ويذكر الأستاذ عبد الرضا الحميري أنّ أحد سكنة مدينة الهندية [أن أباه روى عن جده (جد أبيه): إنّهم كانوا يعبرون شط الهندية من الضفة إلى الضفة وهم على ظهور خيولهم (خياضة) وذلك لضحالة الماء][11] بقت هذه الترعة زمنا طويلا مجرىً صغيرا يجتازه كل عابر بالطفرة[12] ويذكر الحاج عبد المحسن شلاش ذكرياته فيقول: [أحفظ للكوفة في ذكرياتي حتى الآن صورة واضحة ترجع إلى أوائل الجيل الحاضر عام ١٣٠٥ هـ (١٨٨٨) وقد كنا نرى يومئذ آثار العمران فيها ليس إلا بيوتا من القصب والبردي تحيط بلجة ماء تطفو على شواطئها في موسم الفيضان ويعهد هذه البيوت فلاحون يفلحون أشجارا ونخيل لاتزال في أوائل نشأتها، وفي وسط تلك اللجة جزيرة صغيرة فيها مقام النبي يونس (عليه السلام) كنا نعبر إليها بالزوارق اليدوية في

(١) المصدر السابق ص - ١٣١.
(٢) السيد حسين البراقي - اليتيمة الغروية والتحفة النجفية - المصدر السابق ص - ٣٨٨.
(٣) محسن الأمين - أعيان الشيعة - بيروت ج / ١ ص - ٢٠١.
(٤) المصدر السابق.
(٥) عباس العزاوي - تاريخ العراق بين احتلالين - ج /٨ ص - ٩٩.
(٦) جعفر باقر محبوبة - المصدر السابق ص - ١٩٥.
(٧) رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوربا، ترجمة مصطفى جواد ط ١ لندن ٢٠٠٧ ص - ٢٧٤ - ٢٧٥.
(٨) حمود الساعدي - بحوث عن العراق وعشائره - النجف ١٩٩٠ ص - ١٠.
(٩) رحلة المنشي البغدادي تعريب عباس العزاوي بغداد ١٩٤٨ ص - ٩١.
(١٠) حمود الساعدي - المصدر السابق -.
(١١) عبد الرضا عبود الحميري - العطش المر في وادي الرافدين - ط ١ بغداد ٢٠١٣ ص - ١٧٢
(١٢) عبد المحسن شلاش - الكوفة ويوم التاج - مجلة الأعتدال العدد ٨ السنة ٢ / ١٩٣٥

ذلك العهد الذي لم يدم طويلا إلا وصرنا نشاهد تلك اللجة وقد أصبحت مجرىً واسعا منتظما ينحدر إلى مقاطعات المشخاب][1].

ويذكر علي الشبيبي في مذكراته [ذكر فرّاش المدرسة بأنه سمع من جده المعمر إن ضفة نهر الفرات كانت مكان سوق آل شمسه][2].

وفي أوائل عام ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م) سعى وكيل السنية في الجعارة إلى تجفيف بحر النجف لغرض الأستفادة من أرضه، وكان بحر النجف في الأيام الأخيرة يتمون من الفرات من مكان اسمه المدلك (المدلق) فعمد وكيل السنية إلى المكان المذكور وسده سدا محكما، ومن هذا التاريخ تحول المرسى من النجف إلى الكوفة الحالية التي أطلق عليها في أول الأمر اسم شريعة الكوفة. أما الكوفة القديمة فكانت مندرسة تماما ولم يبق منها سوى جامعها الأعظم[3] وأصبحت الكوفة الميناء الرئيسي وأصبح المرسى أمام خان الكليدار وجامع النبي يونس[4]

وفي عام ١٣٣٧ هـ (١٩١٩ م) أنشئت مسناة مستطيلة على ضفة الفرات اليمنى مسافتها ١٠٠٠ متر تقريبا أمام البيوت والمخازن التجارية[5] وقد أدركت وأنا صغير الكثير من السفن ناقلات النفط وهي تقف في المرسى من النهر.

الخريطة المرفقة

عندما أشاهد الخرائط التي تم رسمها لمدينة الكوفة القديمة لفت نظري أنّها تضع نهر الفرات محاذيا لمدينة الكوفة كما هو اليوم.. وفي هذه الخارطة تم رسم المجرى القديم لنهر الفرات مع الموقع الحالي لنهر الفرات وقد وضع بخطوط متقطعة، مع إيضاح موقع الكوفة في العصور الإسلامية الأولى وتم الرجوع إلى المصادر في كل موضع تم رسمه وكما يلي:

١ - تم الأعتماد على رسم نهر الفرات الحالي ونهر الشامية وكذلك طف النجف ومسجدي الكوفة والسهلة على الأقمار الصناعية..في برنامج (Google Earth).

٢ - أما حدود مدينة الكوفة فقد تم الأعتماد على خارطة ماسنيون بحدودها وليس بتفاصيلها الدقيقة. وقد ذكرنا المصدر من خلال البحث.

٣ - في تخطيط نهر كري سعدة أو خندق سابور تم الأعتماد على خارطة بقياس ١ / ٥٠٠٠٠ طبعتها مديرية المساحة العامة بغداد - ١٩٧٦ وكذلك على كتاب أحمد عادل كمال - الطريق إلى المدائن - وقد ذكرنا ذلك من خلال البحث.

٤ - أما موقع الثوية وقصر الخورنق والسبخة فقد تم الأعتماد على المصادر التاريخية.

٥ - وضعت مقياس الرسم بدلالة الوحدات إلى الكيلومترات وهذا المقياس لا يؤثر على حجم الخارطة عند طباعتها.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) " علي محمد الشبيبي - ذكريات التنوير والمكابدة - ط١ دمشق ٢٠١٢ ص ١٦٧

(٣) حمود الساعدي - المصدر السابق - ص - ١٢.

(٤) كامل سلمان الجبوري - تاريخ الكوفة الحديث - ج/١ ص ٢١٩.

(٥) عبد المحسن شلاش - المصدر السابق.

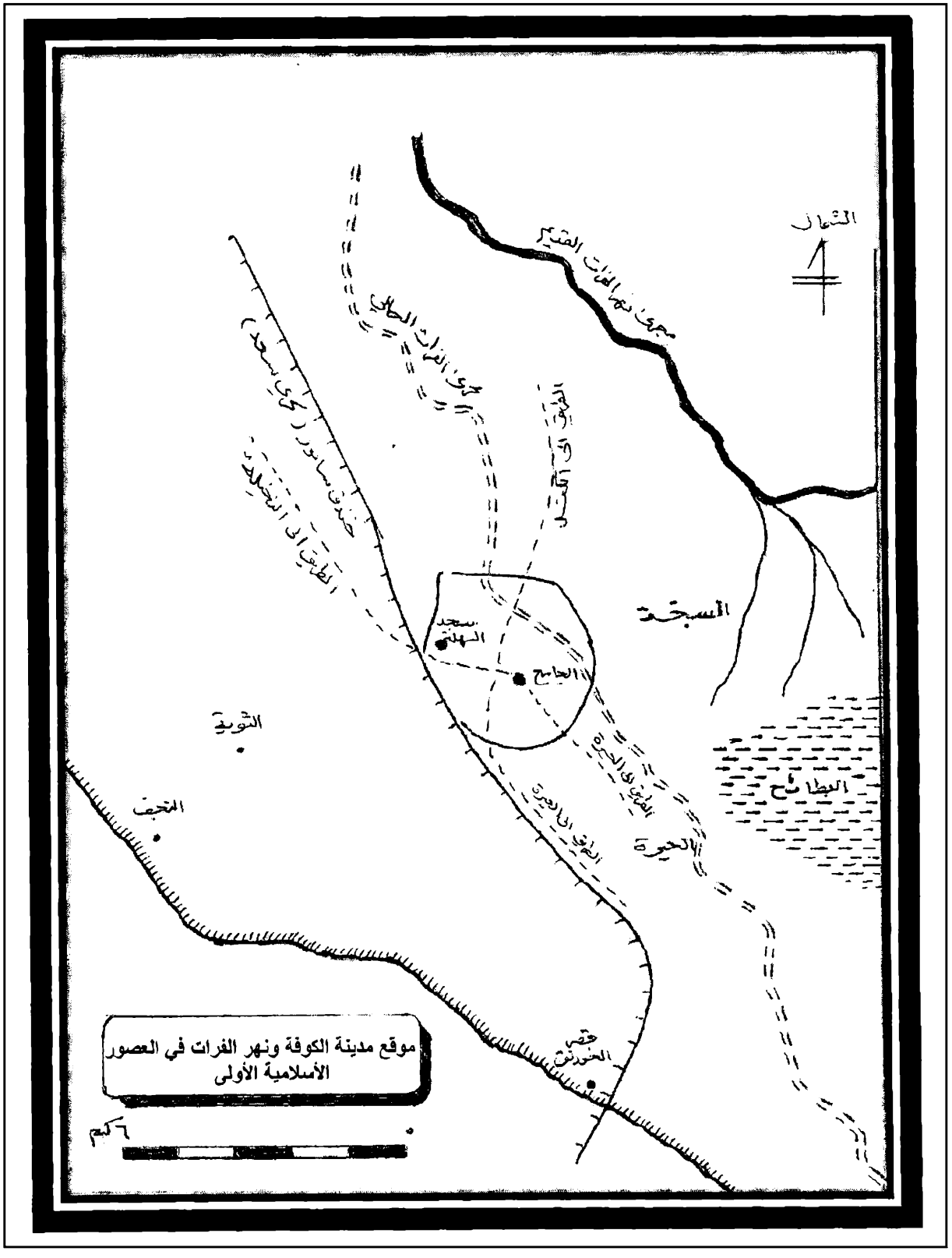
الشمال
مجرى نهر الفرات القديم
الطريق الى الحيرة
الطريق الى الكناسة
الطريق الى النجف (كوفى مسجد)
مسجد السهلة
الجامع
السبخة
الثوية
النجف
البطائح
الحيرة
الطريق الى الحيرة
حفير الخورنق
موقع مدينة الكوفة ونهر الفرات في العصور الأسلامية الأولى
٦ كم